

بمناسبة « المولد » :

حقائق مؤلمة

للأستاذ علي الطنطاوي

« الكتاب أطباء الأمة - فإذا جامل الطبيب مريضه فكتم عنه داءه ، لم يبرأ منه أبداً . . . » علي .

هذا يوم « المولد » ، وإنه لمحة في طريق الزمان ، فلنتفقد عليه كما يقف المسافر في المحطة ، ليلقي ببصره حوله ، فينظر إلى ابن يسير ، وكم قطع من طريقه إلى غايته ، وهل يمشی إليها على الصراط السوي ، أم قد ضل عنها وجانفها ، وهل يسير القافلة أم شرد عنها وفارقها ؟ ولنحاسب فيه أنفسنا كما يحاسب التاجر نفسه ، فيرى ما له وما عليه ...

أما أنا ، فقد وقفت ونظرت ، فأبنتُ وقد فاضت النفس حسرة ، وامتلأت ألماً ، وأبقت أن الذي هملنا ، أكثر من الذي لنا ، وأنا قد « خسرنا » !

ولم يكن التشاؤم من شأني ، ولا اليأس مذهبي ، ولكن ما نحن فيه يُؤيس الأمل ، ويكسرُ المتفائل ، وأين لعمري باب الأمل حتى أُلجِه ، وأية حال من أحوالنا تبشر بالخير ، وتدعو إلى السرور : أحلنا في بيوتنا ، أم في مدارسنا ، أم في أسواقنا ، أم في دواوين حكومتنا ؟ وأي طبقة من طبقاتنا تتبع هدى نبينا : أعلماؤنا أم تادتنا ، أم أديباؤنا ، أم عامتنا ؟ وأي بلد من بلداننا ، كان البلد الإسلامي الخالص : أحجازنا ، أم شامنا ، أم مصرنا ، أم عراقنا ؟

أما البيوت ، وهي الحجارة في صرح الوطن ، لا يصلح إن فسدت ، ولا ينهض إن تهافتت ، فلقد كان العهد بها مؤسسة على التقوى ، فأعته على الخلق النبيل ، والورد المبذول ، وكان الرجل

أيتها الأمة العربية : لا تعتمد على رجال السياسة ، فقد تكون لهم قيود وحدود : ولكن اعتمد على نفسك ، وادق إلى الأمام ليتخطوا هذه السدود والقيود !
أيتها الأمة العربية :

« احذري رجال السياسة من أبنائك ، لا لأنهم قد يخونونك أو يخذعونك ؛ ولكن لأنهم هم قد يخانون ويخذعون . ولأن كراسي الحكم والمناصب ، قد تكون في بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنم له الأعصاب الثائرة ، وتخذ فيه الدماء الفائرة !
أيتها الأمة العربية :

خذى الأمر في يديك من جديد . فإني أرى الموقف يستدعي جهود الشعوب نفسها ، لا جهود زعماء الشعوب !

وما يخذعك أيتها الأمة - في كل قضاياك الوطنية لافي قضية فلسطين وحدها - إلا الخدوع ، بقصيصك عن الأمر ويستنم للوعود !
تلك صيحتي لك بالأمس ، وإنها لصيحتي لك اليوم . فخطبى القوم باللغة الوحيدة التي يفهمونها ، ولا فسيذهب صوتك الديبلوماسي الناعم صرخة في واد . والأمر إليك ، فانظري ما ذا تأمرين !
سير قطب

ويبلغ بنا إليه والنفلة أن مخاطبهم باللغة الدبلوماسية - وهم لا يفهمون هذه اللغة مع الأسف من الشعوب الصغيرة ، بل هم لا يفهمونها من الشعوب الكبيرة في بعض الأحيان !
والضمير السياسي البريطاني ؟ تلك الخرافة التي يتعلق بها ساستنا حينما تضعف نفوسهم عن اختيار الطريق الوحيد المؤدى إلى حقوقنا الوطنية ، وتمجزألسنهم عن اللغة الوحيدة التي يفهمها الانجليز . هذه الخرافة التي لم تنكب مرة واحدة إلا عن طريق التعلق بها ، ولم تنجح مرة واحدة إلا عن طريق اليأس منها . . . ومع كل التجارب الماضية يوجد بيننا من لا يزال يثق في هذا الضمير هامى ذى الهجرة الصهيونية تباح أيها الواثقون بالضمير السياسي البريطاني . فاذا أنتم قائلون ؟ بل ما ذا أنتم فاعلون ؟ مذكرات دبلوماسية ! وبيانات دبلوماسية ! وانتظار للردود على هذه البيانات والمذكرات ، تأتيكم أولا تأتيكم بعد حين !
والهجرة تستمر ، والصهيونيون يدخلون !
أيتها الأمة العربية :

أفيك وصيد . مذخور ، أم أنت من المالكين ؟ فاما إن تكن الأولى أيتها الأمة فخطبى القوم باللغة الوحيدة التي يفهمون ، وأما إن تكن الثانية ، فإن الإنجليز مذورون ، والصهيونيين محقون !

بالشباب العزاب ليملوا البنات ، فكنا كمن يذني سملكتي^(١) ،
الكهرياء ، حتى تنفد شرارتها ، ويضع إلى جانبها البارود ،
ثم ينام الأحق آمناً من الانفجار ، ما بقى والله إلا أن نجى ،
بالبنات ليعلمن الشباب ، وما دنا نمشي على هذا الطريق ، فابق
نسى ، عجيب ، وكل آت قريب ! !

اللهم الطف بنا ، ولا تكننا إلى أنفسنا ، ولا تسلط علينا
سفهاءنا ، يارب !

أما الأسواق ، فلقد كانت فيها التجارة فصار فيها الاحتكار ،
وكان فيها قوم منا ، يجلبون لنا أرزاقنا ، فصار فيها أعداء لنا ،
يسرقون فيخزنون أقواتنا ، ليجمعوا القروش من جيوبنا فيجعلوها
ذهياً في صناديقهم ، ولقد انتهت الحرب ، وحل السلام ، ولا يزال
هؤلاء الفجار الأشرار يرفعون الأسعار ، ويكونون الفقراء بالنار ،
لا يعرفون الإنصاف ولا الرحمة ولا الإنسانية ...

أما دواوين الحكومة ، فقد نسي من فيها أنهم أجراء الناس ،
بأكلون الخبز من فضل أيديهم ، ويجلسون مجالسهم هذه لخدمة
مصالحهم ، وخبثوا أنهم ملوك والناس لهم خول ، وسادة وهم
لهم عبيد . ثم لم يكف أكثرهم ما يأخذون من وقت من يرجع
في حاجته إليهم ، ومن كرامة نفسه حتى أخذوا الرشوة من جيبه ،
وربما ... وربما مدوا أعينهم إلى عرضه ... وهم بعد ذلك جيش
محيش ، نصفهم لا يحتاج إليه ، ولا ينفع به ، قد جادت يا
الوساطات والشفاعات ، فرفته من غير كفاية على أهل الكفايات .
ومن اقتصر منهم على مرتبه ليمش به ، عاش من قلة الرتب حيا
هي كاللوت ، ولم يكفه المرتب ثمن الخبز ، فكان الحكومة تقول
لصغار الموظفين : اذهبوا فاسرقوا لتميشوا ، فإن ثمن خبزنا
أعطيناه لكبار الموظفين ، لينفقوه على الترف والسرف والترف^(٢)

ثم إن العلماء ، وهم عدة الإصلاح ، ولُسن الحق ، ودعا
الله ، هربوا واختبأوا في بيوتهم ، فمنهم من لا يرى النكروا
يرفه ، ومنهم من يراه ولا ينكره ، ومنهم من ينكره همسا
ومنهم من يعلن ولا يعرف الطريق الوصول إلى رفع المنكرات
ومنهم من ملأت قلبه الدنيا ، فهو يسمى إليها ، وبزاحم عليها
وربما اصطادها بشبكة من حية عريضة ، وقيدها بسبحة طويلة
وأخفاها تحت عمامة ضخمة ، وذلك من أجلها للحكام ، وخض

(١) اللك جمع والناس يفتونه فرداً . والواحدة سملكة وهي الميتة

(٢) الترف - الاسم من اللقافة

فيها سيداً يعطيه أهلها وبطبع هو ربه ، وكان لعمله وبيته ،
لا يعرف غيرها ، ولا جهة سواهما ، وكان الولد براً بأبيه ، والزوجة
مواظقة لزوجها ، همها دارها ، ومطمحها إسماد زوجها وولدها ،
فتغيرت الحال ، فصارت المرأة قوامه على رجلها ، والولد متكبراً
على أبيه ، والرجل داره قهوته أو ملهه أو ناديه ، والمرأة بينها
الشارع ودينها زينتها ، تتخذها لتتجمل بها للرجال الأجانب
في الترام والطريق ، لا لزوجها في المنزل ، وآتت على دارها
زياراتها وسينها ، وربما خالف الزوج إلى غير أهله ، وخلت هي
غير زوجها ، ونشأ الولد على المجون ، وشبت البنت على الاستهتار ،
هذا وميزان التفقات في البيت مختل ، وحبل الود مصروم ،
والتعاون على الخير مفقود ، وظل الدين غير ممدود ، وما بقى من
البيوت صالحاً ، فإن الفساد يسمى إليه ، وهو يسعى إلى الفساد !
أما المدارس ، فلقد كنا نعرفها مشارق أنوار العلم ، ومنتابع

الهدى ، ونعرف المعلمين فيها مربيين مهذبين ، ورثة الرسل وخلفاء
الأنبياء ، ونعرف التلاميذ وهم طلاب علم وقصبات خلق ، دنياهم
مدرستهم ، وعملهم دروسهم ، وأعلمهم معلومهم ، فكانت المدارس
تخرج علماء ومهذبين ، أصحاب خلق متين ودين ، تعزبهم بلادهم ،
وتسمو أوطانهم ، فصارهم التلاميذ حزب سياسي ينتسبون إليه
ويصرون في مظاهرائه ، ويضمون أكتافهم سلكاً لزعمائهم ،
يرتقون عليه إلى ما يشتهون من كراسي الحكم ، أو محلة ينتحلونها ،
ويحملون في صدورهم شارتها ، ويهرعون إلى ناديتها ، ثم لا يفهمون
من حقها أو باطلها إلا هذه المظاهر التي طلبوها لها وحدها ،
ثم يشتغلون عن الدرس بالخلاف عليها والكلام فيها ، من غير
فقه لها ، أو وقوف على مبادئها ، أو فلم سينها يحرصون عليه
أكثر من حرصهم على دروسهم وعبادتهم ، أو رواية في مسرح ،
أو صورة مكشوفة في مجلة ، وصار المعلمون - أعني أكثر
المعلمين - أصحاب شهادات لا علوم ، ودعاة مذاهب سياسية أو
اجتماعية ، لا دعاة إلى الله ولا إلى الخلق ، وصاروا قدوة الطلاب
في قصد السينات والملاهي ، لا قصد الساجد والكتبات ، وصار
منهم الشيوعي الذي يعلن شيوعيته ، والقومي الذي يظهر قوميته ،
والجاهد الذي لا يتوارى ببحوده ، والملاجن الذي لا يتستر بمجونه ،
إلى والله العظيم ، ووسدت الأمور إلى غير أهلها ، فجعل غير
المالين معلمين ، والمتاجون إلى التربية مربيين ، وتكلم في المسائل
من ليس من أربابها ، ونصدر في محرابها من لم يبلغ بابها ، وجم

وصوفيون ، ودعاة إلى التمسك بالمذاهب وترك الاجتهاد ، وإلى الاجتهاد ونبذ التقليد ، وإلى الأخذ بالحديث وترك كتب الفقه وإلى الاقتصاد عليها ، وفي البدع دعاة إلى القاديانية والبهائية والنسيرية والتيجانية ووحدة الوجود ، وفي غير الدين شيوعيون وقوميون سوريون ، وملحدون ومستهترون ، ثم الدعاة إلى السفور والاختلاط ، والمدافعون عن الحجاب ، وفي السياسة كتلويون وعصبيون ومعارضون ومؤيدون ، وعاملون للانكليز أو للفرنسيين أو للروس ، وقائلون بالجمهورية أو بالملكية ، أو بالاستقلال أو بسورية الكبرى أو بالوحدة العربية ، والمناقشات مستمرة لا تنقطع ، والخلافات قائمة ما تقعد ، قد انشقت البيوت ، وانصدغت الأسر ، وإني لأعرف أخوين : شيوعياً أحمر ، وعضواً في شباب محمد ، شقيقين في دار واحدة ، وأبوها شيخ طريقة... وأعرف شيوعياً وأبوه نقيب أشرف ، فالإخوان في المنزل ، والرفاق في المدرسة ، والزلاء في الدوائر ، يختلفون أبداً ويتقاتلون ... !

فعمّ تنجلي هذه النعمة؟ الله وحده العالم !

هذا في دمشق ، أما الحجاز ومصر والعراق ، فإني أعرفها كلها وعشت فيها ، ولكن ليكتب عنها كتاب من أهل مصر والعراق والحجاز ، يفتح في « الرسالة » باب من أترك الأبواب ، وأكثرها فائدة ونفعاً ، إذ أن أول الدواء تصوير الداء ... !

علي الطنطاوي

(دمشق)

إدارة البلديات - كهرباء

تقبل العطاءات بمجلس منيا القمح

البلدي لنهاية ظهر يوم ٢٦ فبراير سنة

١٩٤٦ عن توريد لمبات وأدوات كهربائية

وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس

مباشرة نظير مائة مليون بخلاف أجرة

البريد (٣٠ مليون) ٤٨٦٢

للأغنياء ، وفقد القلب الذي يقتحم الأهوال ، واللسان الذي يصدع بالحق ، فندا بقول ولا يستمع لقوله ، وينكر ولا يلتفت لإنكاره ، وجأهم لا قلب له يخاطب به الناس ، ويسوقهم به إلى الحق ، ولا لسان ، فكيف يكون داعياً من لا يكون خطيباً ولا كاتباً؟

والقادة ما صاروا قادة بمبقرية اختصمهم بها الله ، ولا بعلم اختصوا به أنفسهم ، وأحيوا في تحصيله لياهم ، ولا بمقل هو فوق العقول ، وذكا لا يدانيه ذكا ، ولكنها هي حرفة احترفوها ومسلك سلكوه : زيد وعمرو ، أما زيد فجد واستقام ودرس حتى أكمل المدرسة ، فصار معلماً أو كاتباً ، أو موظفاً ... وأما عمرو ، فأهل درسه ، وأضاع وقته ، والتوى مع الطرق اللثوية ، فالتحق بالأحزاب ، وعاشر الأعراب ، وولج حيث لا يحسن اللوج ، وخرج من حيث يستتبع الخروج ، ورفع ووضع ، وخرب وأصلح ، حتى عرفه الناس ، فكان نائباً ، ثم صار وزيراً ، ثم تمت آثار قدرة الله القادر على كل شيء ، فاستحال قائداً من القادة ... !

والأدباء وأهل الصحف ، هم أكثرهم التزلف إلى القراء ، والوصول إلى رضام ، وأوا أقرب الطرق طريق الشهوة فسلكوه ، وركبوا فيه الصعب والذلول : من الصور المسارية ، والتقصص المثيرة ، وطريق الإغراب في عرض الأخبار ، وتكبير الصنير ، وتعظيم الحقيير ، وتشويه أوجه الحقائق ، فيقرأ الناشئ الشيء وضده ، فلا يؤمن من بعد بشيء ، وإن كان في الكتاب من يدعو إلى إصلاح ، في لغة صحيحة ، وأسلوب منقح ، لم يقرأه إلا الخالصة ، وإن كانت مجلة على هذه الصفة لم يُبع منها مع كل ألف من تلك عدد واحد !

ولعل بالفت ، أو غلب على التشاؤم ، فلم أر إلا ما ذكرت ووصفت ، ولكنني صدقت ولم أقل إلا حقاً ، ولعل الذي قلت أقل من الحق !

إن العالم اليوم واقف على مفرق الطرق ، حار بينها أيأسلك منها ، ونحن أشد أهل العالم حيرة وتردداً ، فنحن في المكان الذي تلتقي فيه نحل الشرق والغرب ومذاهبهما كلها ، فيأخذ كل واحد ما تصل إليه يده ، ثم يصيح في الدعوة إليه ، ثم يزاحم ليشق له طريقاً ... فنحن في زحمة وضجة دونها ما يروون عن ضجة برج بابل ، والله وحده يعلم تنجلي ... في الدين سلفيون